السيد هاني فحص*

فلسطين التي جمعتنا:
محجوب عمر ـ حكاية ورسالة

١ ـ الحكاية

لدي رسالة كتبتُها كي يحملها الفنان الصديق محيي الدين اللباد، والد مصطفى وأحمد، إلى صديقنا وحبيبنا المشترك ورفيقنا المميز وأحد رهبان النضال الذين تدربوا ودرّبوا في دير شيخ الرهبان في "فتح" خليل الوزير، إلى الدكتور محجوب عمر أو رؤوف نظمي... المقيم بمنيرة السيدة، في شارع حلوان، حيث يمر قطار أنفاق القاهرة إلى ضواحيها. فهذا القطار، بالقرب من منزل محجوب، وعلى مبعدة أمتار منه، يخرج من النفق فيمتلئ دماغ محجوب بصوت عجلاته، وزعيقه الذي لا يزعجه، وإنما يسليه في مرضه ويخفف آلامه، فهو يقول له إن فقراء المحروسة واصلون إلى منازلهم بتكلفة أقل، وفي زمن أقل. ومحجوب قادم من أبو قرقاص حيث لا يُعرف لون وجوه أهلها، ولا يمكن تمييز القبطي من المسلم، بسبب الغبار المتراكم صيفاً. ولهذا السبب ربما، انتظر أهل الفتنة حتى خف الغبار وبانت الوجوه، فعُرف وجه جرجس وماريا من وجه خضر ومريم... وارتكب أهل الفتنة فتنتهم وسالت الدماء بين حادثتي الكشح ونجع حمادي.

ذهبتُ لزيارته في منزله قبل بضعة أعوام، فلم أجده. قالت منى: ذهب إلى أبو قرقاص لأن ثانوية البنات في تلك المدينة من مدن أسيوط، قررت أن تأخذ تلميذاتها في رحلة إلى الأقصر والكرنك ووادي الملوك، كي يلتقين آمون ويسمعن صوت الراهب، الأمر الذي جعل البنات يفكرن في لباس يلائم الرحلة، فوقع الخيار على بنطلونات الجينز. وكانت ابنة شقيقة محجوب إحداهن، فاختلفت العائلة بين قابل بارتداء الجينز ورافض، لأنه لا يلائم تقاليد الأسرة. واتفق الجميع على تحكيم رؤوف ـ الخال ـ والقبول بفتواه، الذي هو محجوبنا.

في منزله، وعلى مسافة أمتار من سور باطوني عال تتخلله فتحات تصعد إليها بسلالم حجرية تدلف منها إلى حَوَارٍ تقودك إلى السيدة زينب، زرته، فقررت زوجته الصديقة الودود، أو أمه التي تصغره سناً، أو ممرضته المريضة، أن تغتنم الفرصة وتصطحب محجوب في فسحة روحية وبدنية إلى مقام السيدة، بقيادتي. وتكريماً لي، سمحتْ لمحجوب بأن يتناول وجبة من لحوم الرأس والحوايا في المطعم الشعبي الشهير الذي تتوقف على مدخله كل ليلة سيارات فارهة لميسورين يتذكرون جذورهم وأهلهم وبيوتهم وأيام فقرهم، فيتخففون، بين البسطاء، من أعباء المجاملات على الموائد البسيطة لهذا المطعم، مطعم الرفاعي. ولم تفعل منى شيئاً كي تردع محجوب عن شيء، إلاّ أكل الألسنة، لغناها الشديد بالدهون والكوليسترول.

(*) فقيه وكاتب ومناضل من الجنوب اللبناني.
وقد وضع الحواشي محرر المجلة.

ولأنها تخاف أن يعيد أكل الألسنة محجوب إلى عادته في الحديث الطويل والمتشعب والجذاب، والذي تتخلله الحكايات والمفارقات التي تستدعي البسمات والضحكات، قالت: يكفينا لسان واحد منه وإلاّ تعب وأتعبنا أضعاف ما يمتعنا ويثرينا.

ويعترض محجوب بالقول أنه هو الطبيب وهي دكتورة في العلوم الإنسانية والآداب، ومترجمة راقية لبعض أعمال دومينيك شوفالييه، ولا علم لها إذاً بالطب، وإلاّ فإن لحوم مطعم الرفاعي كلها، أكثر غنى بالدهون من غيرها على الإطلاق. وتنتهي المشكلة والجدل بالاتفاق على لسان واحد لمحجوب، خوفاً منه أن يؤثّر زعلها في الوضع الصعب لشريانها الأبهر، وخوفاً منها أن يؤثر المنع التام في قلبه الذي يتداول الجلطة مع دماغه، وقد تزيد نسبة الشلل في جسده وتقل قدرته على الحركة والكلام والقراءة الدائمة عن فلسطين والكتابة عنها، كما حدث أكثر من مرة، بحيث إن محجوب احتاج إلى خدمة تامة وتدليك يومي ومزيد من لطف منى ورعايتها وحنانها، وزيارات الأصدقاء في أوقات محددة، بعد وجبة التدليك، أو بعد النوم عصراً، أو قبله ليلاً.

* * *

كنت في فترة راحة بين جلسات أحد مؤتمرات الحوار في بهو فندق شبرد في القاهرة. رأيته من بعيد. كنت عارفاً بالجلطة الأولى، وقد زرته بعد سلامته منها، وقررت أن أزوره في أول يوم لوصولي إلى القاهرة إن أمكن، وإلاّ ففي آخر ساعة، أصالة ونيابة عمّن يشتاقون إليه، وهم عشرات في لبنان وعمّان. كان قادماً نحوي كأنه شبح. فوجئ بوجودي، وكان على موعد مع حافظ أبو سعدة. أخبرني أنه مستعجل. قلت: لماذا؟ قال: أخاف عليها من أن تموت، فأموت. هي أمي وزوجتي وبنتي وملاكي الحارس. هي كل شيء، نافذتي المتبقية على المشهد الفلسطيني والحياة والقاهرة. وأنا أبوها وأمها وأخوها وأختها، وحزنها وفرحها، بعد أن جفاها من جفاها عقوبة على اقترانها بي. كان أبهرها قد بهره بانسداده غير التام، لكن عالي النسبة، فأودعها القسم الفرنسي من مستشفى القصر العيني، وجاء مستعجلاً لأنه لا يستطيع التخلف عن الموعد كما هو دائماً، وكما أخبرني ميشال نوفل الذي بدا عليه الحزن والخوف.

* * *

كثيراً ما أَحب الصخب، صخب الناس والأطفال، فهو يجد نفسه في الناس، من الطريق الجديدة وأبو علي الحلونجي[1] في شارع وفيق الطيبي ومركز التخطيط، إلى أطفال وأمهات تل الزعتر. عندما نقلوا جرحى تل الزعتر إلى مستشفى مرتجل في جامعة بيروت العربية في سنة ١٩٧٦، ذهبت برفقته ومعنا محمود درويش لزيارة الجرحى الناجين من المجزرة. كتب محمود درويش لأحمد الزعتر، وكتبتُ افتتاحية لجريدة "السفير"، أمّا محجوب فصفق بيديه، وأطلق من فمه صفرة مميزة، وصرخ بعبارة غير واضحة وذات تركيب طفولي في مفرداتها وبنيتها الصرفية، وما هي إلاّ دقائق دون الخمس حتى امتلأت ساحة جامعة بيروت العربية في بيروت بالأطفال، فانهمك محجوب في ردّ تحياتهم والسلام عليهم ومصافحتهم فرداً فرداً، والسؤال عن أحوالهم وأهلهم وهم حفاة، وعلى رموش أكثرهم بقية من آثار نوم لم يتوفر الماء الكافي لغسلها. كانت قصيدة محجوب المؤلفة من طفولة متبادلة بينه وبينهم تضارع قصيدة محمود درويش جمالاً وبلاغة ووزناً وإيقاعاً داخلياً وخارجياً ووحدة عضوية بين الشكل والمضمون.

روى لي محجوب أنه كان مرة يتسلل إلى مقره في أحد أزقة مخيم تل الزعتر في سنة ١٩٧٦ قبل المجزرة، وكان القصف شديداً والوقت ليلاً من دون ضوء، فسمع فتاة صغيرة تغني على شباك بيتها

(١) محجوب عمر هو مَن أطلق على محل أبو علي الحلونجي لقب "أبو علي التوسعي"، لأنه بدأ عمله في دكان صغير، ثم راح يتوسع بالتدريج نحو المرآب والجوار حتى بات محله فسيحاً.

"نطّرني عالشباك تا قلّو قلبي بيهواك"، فسألها: "ومين نطّرك؟" قالت: "أبوي".

* * *

عشنا مع محجوب أعواماً، وهو يمتعنا بالحكم المستنبطة من فكرة "حرب الشعب طويلة الأمد"، وكان يطبقها في طعامه وشرابه وعمله ومشيه ونومه وسهره وعلائقه وزواجه السري. كان يقدم زوجته إلينا بأسماء متعددة، ويضحك وتضحك عندما نذكّرهما بالاسم السابق. لم نعرف أنهما متزوجان. هي لبنانية وهو مصري، وهما معاً فلسطينيان نضالياً حتى سنة ١٩٨٢ لدى عودتهما إلى مصر، مبتعدين عن العرقوب ومركز التخطيط وأبو علي الحلونجي والكتيبة الطلابية. ابتعدا سابقاً عن الأغوار، فقد روى لي الأخ محمد صبيح سفير فلسطين السابق في جامعة الدول العربية والأمين العام المساعد فيها، أنه كان في تلك المنطقة بصحبة عدد من قيادات "فتح" بعد معركة الكرامة بأيام، فوصلوا إلى خيمة لفتهم فيها مستوى نظافتها وأناقتها البسيطة، أناقة الفراغ، ورجل يحمل مكنسة من سعف النخل يكنس بقايا طعام وتراب من أمام الخيمة. سألوه عن قائد الموقع، فاصطحبهم بصمت إلى مكان بعيد بعد أن أعدّ لهم الشاي وسقاهم. أوصلهم وعاد أدراجه، فسألوا أبو جهاد من يكون هذا الذي أتى بنا إليك؟ قال: هذا طبيب مصري ويساري كبير وله تجربة نضالية مع الثورة الجزائرية، وقد التحق بحركة "فتح" منذ أشهر، وكان أجرى مراجعة فكرية لتجربته، فوجد أن "فتح" هي التي تلائمه، واسمه الحركي "محجوب عمر".

* * *

في منزل محجوب عمر في منيرة السيدة زينب في مصر المحروسة، تجد كهولاً مصريين، أطباء ومهندسين وبسطاء ذوي عزة نفس، أقباطاً ومسلمين من أسمائهم تعرفهم، فإن كانت الأسماء مشتركة أو ملتبسة، فإن الالتباس يحرم غير العالم من العلم بدين من يحملها، من دون خسارة، لأن هذا النوع من العلم، إن لم يكن عفوياً وإنسانياً، كان أجهل من الجهل. وها أنا رجل دين مسلم وشيعي، أطلب تمكيني من الوضوء والصلاة في منزل محجوب فينهمك المنزل بي، وتدلني منى "المارونية" على القبلة، ويصلي البيت، جدرانه وأبوابه وشبابيكه وساكنوه وضيوفهم معي، ويذهبون في صمت يعادل الصلاة وصلاً. ما الذي جمعهم؟ كانت تجمعهم مصر، ويكفي في مصر لمن يريد اجتماعاً أن يسلم قياده وقلبه لمصر، لذاكرتها وحلمها ونيلها، وإن كان حاضرها العصبي... الطائفي يقطع الوصلة بين تلك الذاكرة وذلك الحلم، إلاّ إنهما لم يعتادا طول الفراق، وسيعودان بعد أن يذهب الزبد جفاء. في مصر كانت تجمعهم فلسطين... أوه! هؤلاء مناضلون قبلنا، وأكثر منا، ومبتعدون عن الأصل وعن الأماكن والأشخاص الذين يبعثون فيك الألم والشك والخوف على نضالك من أن يذهب هدراً بسبب سوء سلوكهم وتفكيرهم، لولا أن فلسطين أقوى حتى من أهلها الأقوياء... الجبارين ـ ومن هنا هذا الصفاء وهذا الإدمان على تذكّر التفصيلات النضالية كلها، وعلى المتابعة التفصيلية للحياة والنضال والصمود اليومي في غزة والضفة. وما الداعي إلى الدهشة؟ هم مصريون... وها هم يكادون يعتبرونك مصرياً لأنك تأتي من مصر إلى فلسطين، ومن فلسطين إلى مصر، ثم يتذكرون أنك لبناني، وأنك جنوبي تنام على ذراع الجليل، وتصحو على كتف الجولان، وتقدم لفلسطين خير ما في منزلك من أرواح ودماء وكلام. ويحبونك أكثر... ويعتذرون منك، ولا تدري لماذا. إنه الأدب المصري الذي يفسدونه شكلاً ومضموناً، ثياباً وكلاماً ولغة يومية، بالعصبية النابذة والذميمة والقاتلة لصاحبها قبل الآخر، لأنها تقتل الآخر في صاحبها فتقتل صاحبها في الآخر. على أننا نقر بأن وطنية المصريين ضمانة لنا ولمصر... أمّا العصبية بين المصريين فهي لا تلائم مصر.

* * *

قررت يوماً زيارته قبل عودتي إلى لبنان، كي أقدم له وجبة أُخرى من ذكرياتنا معه.. ومن تذكر عائلتي الدائم لزيارته منزلي في قريتي، وحديثه الودود مع أطفالي، وما علّمهم من حركات وأغانٍ طريفة علّموها لأولادهم وعرّفوهم إلى محجوب. ودعته بقبلة في جبينه فقبّل طرف ثوبي الديني وتغرغر الدمع في عينيه، لكنه لم يعتد البكاء. كان يبكي وحده كما وشى لنا أحمد سويدان،[٢] روحه المنفصلة ويده التي كتب بها كثيراً.

هاتفت العزيزة منى، الأم تيريزا على حنان وفقر معادلين لحنان تيريزا وفقرها، وعلى علم وثقافة أوسع في اللاهوت والعلوم الأُخرى. قالت: نحن في مشكلة نعالجها الآن. تفضل بعد الظهر. وذهبت بعد الظهر قلقاً. دخلت... أين محجوب؟ كان في غرفة النوم ممدداً على السرير الشعبي إياه منذ عقود كأنه في العرقوب، لكنه هذه المرة معمم بالأبيض... ومن حكايات تجربتنا معه في مستوصف بلدة النميرية في الجنوب، وكان يتكنّى باسم جلال، أنه لا يباشر مريضاً من دون البسملة. وإذا احتاج الأمر قال ما يحفظه من آيات القرآن أو أحاديث الرسول، فلا مانع من أن يتمشيخ وقد سبق له، في زمن ملاحقة الأمن لليساريين قبل دخوله السجن وصداقته مع سيد قطب داخله، أن تلبّس بلباس الدراويش والمداحين ونظم قصيدة شعبية في مدح السيدة زينب، وأخذ يداوم حول الضريح قارئاً مديحه بصوت شجي، كأنه قادم من كربلاء ماراً بالجلجلة، ثم يتقبل بعض المليمات من الفقراء الذين يلفتهم أنه يرضى بأي عطاء ولا يطلب مزيداً، بل لا يطلب أبداً على عكس المداحين الآخرين، الأمر الذي أثار شك رجال الأمن، فهرب. قالت منى: أراد أن يقوم وحده مع الفجر إلى الحمام، فغلبه بدنه، فسقط وشج رأسه الذي احتاج إلى عشرين غرزة، وإلى عذاب شديد من الصباح الباكر حتى الظهر، إلى أن وجد الطبيب الصديق الذي يتابع علاجه خارج المستشفى. وقلتُ: سأغتنمها فرصة نادرة، وأخذت معه صوراً عدة؛ هو بالعمامة وأنا من دونها... أعتمر طاقية مغربية تخفيفاً للحرج في شوارع القاهرة.

* * *

طوال الحروب اللبنانية، وبين أطرافها المتعددة، المتعمدة للحرب أو المتورطة فيها إلى حد التعمد، لم يكن محجوب عمر متحمساً أو راغباً في الانتصار على أحد، كما أنه في الوقت نفسه، لم يكن راغباً في التنصل من الموقف الفلسطيني العام، غير أن موقفه لم يكن دوغمائياً، وإنما كان هدفه وشاغله فلسطين والمقاومة الحقيقية لا الاستعراضية. كان كارهاً للقتل تحت أي ذريعة، وشعاره الذي يردده يومياً "بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين." وعندما كان يسمع أن قاتلاً قُتل، يحزن ويقول: أَلم أقل لكم؟ وخلال حرب السنتين (١٩٧٥ – ١٩٧٧) كان محجوب لا يكف عن إظهار حزنه وقلقه على فلسطين التي كاد ذكرها يغيب في خضم الكلام المجاني على الحرب اللبنانية والانهماك فيها، وقد أسقط همومه على صبورة في حائط مكتبه المتواضع. كانت صفحة نقدية مفتوحة يوقعها باسم "خدام اللطافة"، ويكتب عليها نصوصاً قصيرة له تمتلئ نقداً أو مرارة أو تسجيلاً للمفارقات، ثم يعيد كتابة ما يسمعه من نصوص أُخرى. وهكذا، أسرع إلى كتابة مقطع من قصيدة لصلاح عبد الصبور عندما ذكّرته به في لحظة ضيق واختلاط للحق بالباطل والحرامي والقاتل بالمناضل، فكتب في الجدارية:

هذا زمن الحق الضائع... لا يعرف فيه مقتول
مَن قاتله ومتى قتله
ورؤوس الحيوانات على جثث الناس
ورؤوس الناس على جثث الحيوانات
فتحسس رأسك.. فتحسس رأسك.

وعلى تلك الصبورة في الجدار قرأنا قصائد

(٢) أحد الشباب اللبنانيين الذين التحقوا بالنضال الفلسطيني في حركة "فتح"، وقد عمل في مركز التخطيط إلى جانب محجوب عمر.

محجوب عن الحمار وصفاته الثورية:

أنا اسمي حمار/معروف مشهور
شيخ الشطار
شغيل وباشيل/الحمل ثقيل
مصروفي قليل... أنا اسمي حمار.

وكذلك قصيدته التي يكشف فيها مفارقات فاضحة بين الاستخدام الممجوج للغة التقدمية، والسلوك الطبقي المتهافت والتضليل اليومي للطبقات الكادحة "الجماهير":

أنا اسمي جمهر... مفرد جمهور... مفرد جماهير
يعني لا ريس ولا بانكير
ولا في جدودي عبد أمير
شيء معروف وكتير مألوف... على أشكالي ألوف وألوف
بيحكوا الكُبرا عني كتير والكتّيبة كتبوا كتير
بس يا عمي أنا مش فاهم ليه بيحكوني بالفوازير
إمبريالي وتروسكاتي بروتالوري
وحُروف واقفة جوا فْ زوري
على بال ما افهم بيروح دوري
واسأل يشْخَطْ فيَّ وينهر
واطلع جاهل علشان جمهر.

مرةً وجدناه فرحاً فوق العادة، وحزيناً إلى أم رأسه، سألناه عن السر، فقال: دلال[٣]... نجحت العملية واستشهدت دلال والشباب... هذا إحياء للقضية بعد تغييبها سنتين، من سنة ١٩٧٥ إلى سنة ١٩٧٧.

وكان يفرح عندما يعلم أن ثمة عملية عسكرية ستجري. يرى حمدي فيخبره أن الزرع أخضر.. أو يعود إليه حمدي ويحدثه عن الغلة.. فيشعر بالعافية ويطبع قبلة على خد أبو حسن.[٤]

٢ ـ الرسالة

عزيزي المرغوب محجوب... سلام على حاميتك الطاهرة السيدة زينب، وعلى راعيتك النبيلة منى عبد الله... وعلى العزيزة بهية وعيون بهية ودموع بهية. وقبلاتي للفائض من سمرتك التي تفيض شرقاً وصعيداً وعروبة، وتبقى دلالاتها أبعد منزعاً من دلالات المصطلحات الباردة وفائض القيمة وما شابه ذلك ـ لهذه السمرة التي تذكرني بقمح أهلي البلدي الذي نتذكر طعمه المميز ورائحته الجذابة التي تصاحبه من الحقل أخضر ويابساً إلى البيدر إلى "طشت العجين"، فإلى الصاج، ثم إلى المائدة المكونة من الزيتون الأخضر والزعتر الرمادي والزيت الذهبي والفجل الأحمر واللبن الزبادي والبندورة (الأوطة) البعلية التي تشبه بحموضتها حلاوة البلح الزغلولي. وبعد... وقبل... ومنذ التقينا وإلى آخر العمر، كنتَ، ولا تزال، ولا نزال، وما زلتَ، وما زلنا بخير. ألسنا قد بلغنا مبلغ الوعي مرة ومعاً، وقلوبنا ملآنة بالورد والضروري من الشوك... وذاكرتنا مطهرة من الدنس؟ إذاً، فنحن بخير، وما علينا إلاّ أن نحمد الله على ما رزقنا من سداد وصواب فيما قلنا وفعلنا وأكلنا وشربنا وأحببنا وكرهنا وفرحنا وحزنا...

كنتُ منصرفاً إلى أمر يشغلني، وأتى الحبيب محيي الدين... اللباد اللابد الملبِّد إياه.. فأشعل ذبالة منك في سراجي ففاض زيتي وقوداً لذكراك، وميروناً لعمادتك على شاطئ البحر الميت قبالة أريحا، وعلى مرمى عين أو أذن من حسن صالح[٥] رئيس بلديتها... وتداعيت إليك أو نحوك أو تعاليت فأمسكت بي واقياً إياي من سقطة أو سقطات راجياً أن أعاونك وأعينك وأصونك من أي سقطة. وهززتُ إليك بيراعي فتساقطَ حبراً شهياً وحباً بهياً. كنتُ أكتب عن شاعر أحبه، وعندما عاودتك ـ أنت في كثير من أواخر ليالي تعاودني وتعودني، وتأتيني

(٣) هي الشهيدة دلال المغربي.
(٤) حمدي هو باسم التميمي أحد مساعدي خليل الوزير (أبو جهاد) في القطاع الغربي. اغتالته إسرائيل في قبرص مع رفيقيه مروان كيالي ومحمد بحيص (أبو حسن).
(٥) هو أحد مناضلي "فتح" الذين عادوا إلى أريحا بعد اتفاق أوسلو. وزوجته هيفاء صايغ ابنة عائلة صايغ التي أنجبت فايز وتوفيق ويوسف وأنيس وغيرهم.

في ليل المعنى لغتك كنايات واستعارات وصراحات وبلاغات لا تنتهي ـ أو عاودتني، لا أدري، وجدت أن الكتابة إليك أحلى وأجدى من الشعر، وأعظم الشعراء هو الذي يمتلئ شعراً ولا يكتبه، يكتبه الشعر بدلاً من أن يكتب الشعر. مرة أو مرات كتبتَ أنت شعراً، فابتعدتَ قليلاً عن الشاعر المقيم فيك صامتاً، كأنه مطارد من رجال أمن العدو الذي تعرفه... أمّا أنا فلم أحاوله كي أبقى قريباً من أمثالك، نصنع شعراً يكتبه الشعراء ونطرب لهم. وها أنت أقرب إليّ من نفسي أحياناً. أليس في الحب ومض أو قبس من معنى الألوهة أو النبوة؟ عندما جئتَ من النيل، والتقينا في الجليل، وأسري بنا إلى القدس، وعرجنا إلى السماء الثامنة، أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من بيسان. واتفقنا على أن فلسطين كلما أوغلت بعداً عن العين أوغلت قرباً من القلب. "إن القلوب مواطن الأوطان"، ولها الزمان... هي سوار معصمه، وليس قيدها... إذاً نصل نحن أو تصل هي. والحلم ليس تعويضاً عن الواقع والعيان، بل العيان هو تعويض عن الحلم، لأن الحلم يمر بالواقعي أو العياني فيستوعبه ويتجاوزه إلى مثاله المنشود، وإن كان صعباً فإن صعوبته تزيده ألقاً وجذباً. ما زال في إمكاننا أن نحلم... وهذا ما لا يستطيع أحد أن يمنعه أو يصادره أو يضبطنا متلبسين به، لأنه متلبس بنا دائماً. ولذا، فهو خفي شديد الخفاء، ظاهر شديد الظهور.

نحن الذين نحكي عن أحلامنا.. تماماً كما نحكي عن عيوبنا ونتوب عنها. وأنا اخترت في حلمي داراً لي بين دورا الكرع ودورا الخليل، أزرعها كل شتاء عدساً... لكن الجعفيل ـ النبات الطفيلي إياه الذي لا ينبت إلاّ في الأرض القوية ـ يأكل عدسي، فماذا أفعل؟ أزرع ثانية وثالثة وألفاً، وأنزع جذور الجعفيل على مهل، جذراً جذراً، حبة حبة، خطوة خطوة، شبراً شبراً، حتة حتة... أليس أصل حوض السباحة قطرة، والبحر كذلك؟ إذاً، من البحر إلى النهر قطرة قطرة... حفنة تراب، وكفاً من حنطة، وطاسة من زيت، وغصناً من زيتون، وكوباً من ميرون، وإضمامة حبق وميرامية، وباقة من زهر ليمون يافا، ويفوح العطر ويتوقف المغص، ويغني الحادي "يا حلالي يا مالي"، ويتقاطر سلاف التين من كفر راعي ونعلين، وسلاف العنب من الخليل ونابلس، وسلاف الخوخ من برقين، والرمان من الرملة وصفد، والبابونج من فسوطة ومعليا.

* * *

ولي... ولنا... في دمشق قبر خليل،[٦] قبرٌ خليلٌ. وفي بيروت الضريح المزار والمرمح لجواد[٧] ذي الشعر الفاحم كليل المخيم ـ تعرفه ـ وطوق لعلي[٨] يبدو من صورته المعلقة فوق ضريحه في غرفة ضيقة ومفتوحة أمام المارة في شاتيلا، وحكايات عن نبله وكرهه للدم المجاني والنضال الزراعي.. وأنا أواظب على الحراسة.. وأنوب عنك إذا ما احتاجوا إليك وأنت بعيد وممنوع.. ما عدتَ ممنوعاً... لكنك تؤثر إذا ما اشتقت إلى ذاتك أن تخص غزة بسفرك.. لأن لبيروت وشهدائها مَن يزورهم ويقرأ الفاتحة جهراً من دون خوف. هل تعلم يا محجوب أني عندما أذكر فلسطين بحب وحماسة أتلفت يمنة ويسرة لأن حولي من كانوا يضطهدونني عقاباً لي على فلسطينيتي، أي حبي لفلسطين التي أحبها من أجلها ومن أجل لبنان أيضاً. ثم أنتبه إلى أن هؤلاء الآن يعلنون حبهم لفلسطين ولـ "فتح" وأبو عمار أحياناً... لكني معقد لكثرة ما ضايقوني وحاصروني... يا سبحان الله!. وإني لأخشى مِن بعض مَن يأمرونهم بالحب اليوم أن ينهوهم عنه غداً... أن يكفوا. يا ويلي، ربما قتلوني هذه المرة. إذاً، لا بد من العودة إلى الحب السري والنضال السري... وأنت كما نعرف رائد السرية في كل شيء. هنيئاً لك... ومن مقبرة اليرموك إلى مرج عدرا أذهب لقراءة الفاتحة لحُجر بن عدي، وأعرّج على ضريح ابن عربي، أسمع

(٦) أي قبر "أبو جهاد" (خليل الوزير).

(٧) هو الشهيد جواد أبو الشعر الذي استشهد في بيروت في إحدى نوبات القصف الهمجي العشوائي.

(٨) هو علي أبو طوق الذي دافع ببطولة عن مخيم شاتيلا في إبان الحرب على المخيمات، واستشهد فيه.

وصيته في الحب المفتوح، ثم أقرأ الأبانا على روح جول جمال[٩].. وآخر المطاف يكون في ظل مقام الست زينب، فأستعيد نجواك ومناجاتك لها أيام رعبك، وأيام كان الكلام جميلاً وكان الصمت جميلاً. وأرى معك كم أننا ماضويون، وخصوصاً عندما نطنب في الحديث عن المستقبل!.. مثالنا وراءنا يا رؤوف ويا منى.. ويا محمد حمزة وعبد الحكم ومحيي..[١٠] وليس أمامنا.. على الأقل ليس في المدى المنظور.. واعذرني لهذا التقطع في الكلام، فنحن في طور إعادة إنتاج (شايف ما أحلاها إعادة إنتاج!!!) سايكس بيكو... أي تقسيم المقسَّم وتجزيء الجزئي أو الجزء إلى جزئيات أو جزيئات، بالنانوتكنولوجي هذه المرة، تجاوزاً للحاسوب، لأن بؤسنا أسرع وتيرة من وتيرة نمونا المعرفي!!! هذه المرة لن يكون المواطن أقل شتاتاً من الوطن. ويلي علينا وعلى هذه الأوطان التي نذهب إليها... نبحث عنها.. فنجدها تبحث عنا.. ولا نلتقي إلاّ في المنام أو المنفى أو السجن! عفواً... تذكرت وسأذكّر بالآية الكريمة ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾... إنني في محطة يمكن تسميتها مجازاً أنها يأس كامل... والمجاز ابن الحقيقة، يأتي بعدها وإن كان أحياناً أبلغ منها، لكنه في المرتبة الثانية لا الأولى. ويا أخ محجوب أنت تعاقر النيل وتطالعه يومياً أو يطالعك... فلا ترفع عينيك عنه ومنه ولا ترفعه عن شفتيك... بلل بمائه روحك ما استطعت... وتوضأ منه بكأس واغتسل بكأس أُخرى... وهات يدك إليّ، امسحني، اغسلني... فالليطاني ما زال مهدداً بالخطف..

* * *

يا أخ محجوب... كنتُ، عندما تضيق بي الدنيا في الجنوب الواسع، أرتدي ثيابي وهمومي وأخرج من بيتي وأهلي بلا كلام إلاّ السلام. يقدّرون أني ذاهب إلى محجوب لأتخفف من الغم الذي يلحقني من الحياة، أو من فلسطين التي كلما اقتربت منها بدت كأنها تبتعد... لا أظن أن هذا دقيق... لعله أدق من تصوراتنا وأحلامنا، وهو ما يعني أننا سنموت ولن نراها (رآها محجوب بعد أوسلو وحسدتُه). وتطمئن زوجتي إلى أني سأعود أليفاً ألوفاً أكثر، وأعود من عندك بعد أن أمر بجواد، مستبشراً، ممتلئاً قلباً بالحب والرجاء. أنت زيت الروح يا محجوب، وأنا الآن أعيدك إلى وظيفتك في غسل الأحزان ومعالجة الإحباط، لأن غيوم الحزن تتكاثف فوق جبيني، آتية من الكويت ومن فوق بغداد، وأخشى أن تمطر. أنت الريح التي تبددها أو تحملها إلى مطارح أُخرى... إلى تل أبيب مثلاً. فكن، أو ابقَ بحيث إذا ما احتجتُ إليك، وجدتُ صدرك كما عهدته رحباً كهذا الوطن العربي، عريضاً كهذا النيل "جارك"، طاهراً نقياً كدماء الشهداء... وخصوصاً دلال وحمدي وعلي وسعد ونعيم وجواد ومروان وعبمعطي ويونس...[١١] بهياً كفجر الحرية... زكياً زاكياً كفمك، ذكياً كلسانك... قوياً كجنانك... وسلاماً سلاماً، قولاً من رب رحيم.

"إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرِبَ، كما أن البيت الذي لم يُسكَنْ يَخْرَب." في آخر الحزن يا رؤوف محجوب[١٢] شبر من أرض تشتهي البذور ـ على ما كان يقول أبي وجدي وجدتي ـ تُطْلع عشباً يزهر فرحاً أبيض، ونحن نزرع في أرضك، نحرثها فتحرثنا، نُعَشِّبها فتعشبنا، فابقَ... أو كن ناطور كرمنا وكرمك. انطر كرمك أيضاً، وافرح بسمرتك الغامقة، وإلاّ فمن أين نأتي بالخبز وبالخمر؟

(٩) ضابط بحري سوري استشهد في أثناء العدوان الثلاثي على مصر في سنة ١٩٥٦.

(١٠) محمد حمزة هو الاسم الحركي لسمير غطاس، وعبد الحكم هو إسماعيل عبد الحكم، ومحيي هو محيي الدين اللباد، وجميعهم مصريون كانوا، بشكل أو بآخر، في مناخ الثورة الفلسطينية.

(١١) سعد (سعد جرادات) ومروان كيالي وعبمعطي (عبد المعطي) ويونس ونعيم كلهم شهداء من خيرة شبان حركة "فتح" ممن عُرفوا بمسلكهم الراقي وتفانيهم في سبيل قضية فلسطين.

(١٢) الاسم الأصلي لمحجوب عمر هو رؤوف ميخائيل نظمي عبد الملك.

خمرنا نحن المثلث كدموعنا ودمائنا.

* * *

"رويداً رويداً، موكب السكارى يصلون... رويداً رويداً عُبَّاد الخمرة يصلون"، هكذا يقول حافظ الشيرازي، فلا تستعجلْ... لا نستعجل.. "ومُجْتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع في غير أرضه" يقول علي بن أبي طالب. يا محجوب نظمي،[١٣] أيها الفتى الذي كلما انتشر بياض الشيب على رأسه، زاد شيبه اشتعالاً، وتألق وشبّ. إني أخاطبك بصيغة المتكلم الجمع، لأنك نحن... لأنك أنت فأنت نحن.. ولأننا نحن نحنُ فنحن أنت. نعم، جميع الذين عرفوك وعاينوك وعانوك وعاقروك ما زلت فيهم، وأنا أنوب عنهم في مخاطبتك... فهل تسمع؟ هل تسمعني... تسمعنا؟ نحن على السمع دائماً. خانك شريانك... لقد أتعبته. قل له إن لك في كل منا شرياناً احتياطياً مدخراً ليوم وجعك... عفواً، خذ من هذا الكلام حبّاً ودعْ غيره. حافظ على شراييناك وأوردتك ووردك كرمى لعيونها. تعرف من؟ وعيوننا، وإني لأود أن توافقني على ما قلته لي تكراراً من أن الحياة تستحق أن تُعاش. يبقى السؤال: كيف؟ إنك خير من يملك الجواب قولاً وعملاً. رجائي أن تبقى طليعتنا في مراودة هذه الحياة عن حلالها وجمالها... بعفة وتقوى كما يليق بأشباه الأنبياء، أو من يتشبهون بهم، لا كما يلائم الأنبياء الكذبة، الكذبة، أشباه الرجال... أشباه المناضلين.

* * *

سلام عليك يا محجوب... سلام على النيل وعلى المنْيَل، وعلى الفقراء في منابت الشيح وملاعب الريح في سيوه وسوهاج والمقطم والهرم وطريق الإسكندرية الصحراوي... وحلايب والشلاتين، وعلى الناس في الأقصر وأسوان ووكالة البلح وعزبة السكاكيني... سلام على رأس الدلتا حيث يفترق الواحد ليجتمع الجميع في حضنه بين الفرعين... سلام على زهران وعرابي ومصطفى كامل والأفغاني، والساهرين في مقهى "متاتيا" ينتظرون نصيبهم من "عطوس" السيد جمال[١٤] وفكره العابر للحدود، متلفتاً قلبه دائماً إلى مصر، موصولاً بالنيل وسور الأزبكية، وشارع الفجالة مكتبة القاهرة القديمة... سلام على ذاكرة الشعرية والجبرتي والحفر الأليفة في زقاق المدق وخان الخليلي ورائحة الحلبا في الفيشاوي، وعلى المتشبث بشباك الحسين وبائع الأحراز على باب السيدة... سلام على كنانة الله كلها وعلى أعوادها، على باب الحرمين، على المحروسة، أم الدنيا... سلام إلى الراهب المتبتل الساطع كضمير الشهداء، سلام إلى محيي الدين اللباد من صلعته إلى ريشته، الذي فتح لي، لقلبي، شباكاً عليك وأعارني ريشته وألوانه وقرطاسه لأرسم وجهي في وجهك... ما أجمل وجهي في وجهك!

وتعال نتبادل الأعمار يا محجوب. خذ عمري وامنحني عمرك. املأ عمري من عمرك حكمة وصبراً، ودعني أملأ عمرك من عمري رجاءً... "وعندما يصير الزمان إلى خلود سوف نراك من جديد لأنك صائر إلى هناك، حيث الكل في واحد."

* * *

محجوب... أعلم أن تفصيلات الحياة اليومية ومفارقاتها تعجبك... ها إني أسمع الآن أذان الفجر... وبعد قليل ينتشر النور الأزرق الذي كان يحبه محمود درويش، حتى إنه ألغى سفره معنا إلى طهران مرة لأنه سهر الليل كعادته... فأنجب مقطعاً من قصيدة، وبحث عمّن يكافئه فلم يجد، فقرر أن يستمتع بالنور الأزرق ويلغي السفر. اسمح لي بأن أصلي، وسأدعو لك بالجنة والرضوان، على أساس من قناعتي التي تعرفها بأن الخلاص الأخروي فردي... وغيره إخلال بمفهوم العدل الذي يكتمل به التوحيد. فأنا رجل الدين المسلم الشيعي أرجو أن تكون رفيقي في الجنة، لا من أجل الحور العين بل من أجل فلسطين، لعلنا نراها هناك إن لم نرها هنا.

(١٣) انظر الحاشية السابقة.
(١٤) أي جمال الدين الأفغاني.

فلا تقلق، لأن دعائي إلى الله مستجاب لأنه خال من الأنانية. ها أنا قد صليت ودعوت لك ومررت في الطريق إلى غرفة "المونة"، وعلى إبهامي بقايا من فأر اصطدته على عجل. لقد عاثت الفئران فساداً في مؤونتنا وثيابنا ووصلت إلى أوراقي وذكرياتي المصورة أو ما تبقى منها بعدما دفنت أمي معظمها في التراب عندما وصل الصهيونيون إلى قريتنا، وغمز العميل لأبي قائلاً: أتى وقت الحساب. واستنفر الأولاد لصيد الفئران... تعلموا الصيد من الشبان الذين ربيناهم بعيوننا... وتصيدوا المحتلين من دون أجر يومي أو شهري. كانت حصيلتنا من الفئران القتلى هذه الليلة أربعة أزواج، والحبل على الجرار.

وأعدك بألاّ نتراجع، حتى لو بدا أننا ملنا إلى السلم مع الفئران. لن نتراجع حتى ينسحبوا من البيت إلى الحقل الذي استباحوه قبل أن نأتي إلى الدنيا. وعندما ننتهي من مرحلة الفئران سنتفرغ للجرذان... وعندما يستيقظ ولدي، صديقك حسن،[١٥] غداً، سأدخل معه في مشادة عندما أدّعي أني اصطدت عدداً أكثر من العدد الذي اصطاده. وأتراجع في النهاية متوعداً بأني سأتفوق عليه وأتجاوز أمجاده كلها، وإن اقتضى الأمر أصادرها. حسن مثلي يا محجوب... لو خلفت ولداً لكان مثلك، وللبّى حاجة أحفادنا إلى محجوب آخر وضروري. طبع حسن كطبعي... يحب بكثرة، وعندما يخيب أمله يُفجع ويختنق ويخنقني ولا محجوب له.

أم حسن وحسن وزيد وريا وبادية ومصطفى يذكرونك بخير، ويسلمون عليك. ريا لها بنتان ديمة وعدن، وبادية لها نوار وعاصم وعزة. وزيد عندما رأى ـ كما حدثتُك ـ مسيرة المتدربين على القتال في معسكر "فتح" قرب قريتنا، نزع ثيابه كلها وقرر أن يذهب إلى المعسكر كي يتدرب. الآن أختلف معه في كثير من الأمور، لكنه يصالحني عندما أواعده في فلسطين. ومصطفى عمره أربعة وثلاثون عاماً، وطوله ١٩٧ سم، وقد قرر يوماً أن يصطاد العصافير بالدبق فلم يفلح، فدهن ذراعيه وساقيه بالدبق وصعد إلى سطح المنزل وانتظر أن تحط العصافير على بدنه، فلم تحط، وحطّ هو على أرض الحمام للعلاج. ثم ذهب إلى جنين وتزوج من بنان التي تحب الميرامية من حقول برقين.

أم حسن ما زالت تشكو من آلام في صدرها وقرحة في أمعائها، لكنها توزع حبها وحكمتها، وتعلّم النساء الصبر، وتضحك ملء قلبها وروحها، وتحزن وتبكي ملء عيني وروحي.

وأنا إذا لم يأتني الوجع أفتقده وأبتئس. يا محجوب ضع أذنك على صدري واعتن بقلبك وافرح كي تتيح لهذا القلب أن يعمل أطول. قلبك ليس لك، إنه مشاعنا الذي لا ينقسم. ولا شرط لنا عليه إلاّ نبضه. نحن لا نشترط على مصر أو فلسطين... هما يشترطان.

* * *

أكاد لا أمل الكتابة إليك... أخبرك أني قرأت الأناجيل بعد ثلاث ختمات للقرآن في الأسبوع الأول من رمضان. بحثت عن المشترَك فوجدته، وأعلنت الإيمان الكبير والتوحيد الإبراهيمي جامعاً. وتذكرت أني طالبتك بالجزية بعد غداء من البيض المسلوق، أمام لوح "خدام اللطافة"، ومحمد البطل[١٦] يداري نعاسه بلطف اعتدناه منه، وقلت لي أنك أسلمت، فألزمتك الختان. وطلبت مني أن أسكت كي لا تفاجئني بواقع إذا كشفت عنه أخجلني. وضحكنا كديكين روميين، ونمتَ أنت على البطانية متوسداً سترتك، وذهبت أنا إلى أهلي راضياً، راوياً أن حواراتي الدائمة مع الرهبان والراهبات تثمر حباً يومياً ومعرفة وتعارفاً نوعياً. هذا يسرك قطعاً.. يسرك أن أتحرر بالآخر أو من أجله، وأغريه بالحرية والالتباس بي من دون مغادرة أو تنصل من محدداته ومعيناته. لكني وإياه نكتسب خاصية نوعية عندما نتعارف ونتآلف إلى حد الالتباس...

(١٥) هو حسن فحص، صحافي وكاتب عمل مراسلاً لجريدة "الحياة" ولقناة التلفزة LBC في طهران عدة أعوام.

(١٦) أحد العاملين في مركز التخطيط في عهد محجوب عمر في بيروت.

التباس كل منا بالآخر، من دون تلبّس أو تلبيس.

أقول لك بملء فمي: إن الزرع الذي سقيته يوماً بعصارة عقلك وروحك وتجربتك ما زال على وعده بالثمر السائغ، فافرح... وإليك هذا الخبر: نوار، حفيدتي، بنت بادية، ولدت ليلة الانتفاضة... قالت لي علمني أغنية "زغيرة"، قلت لها: قولي: "أنا اسمي حمار"... قصيدتك المشهورة. عبست في وجهي، سدت فمي بيدها. قالت: بس.. عيب... وشكتني إلى أمها وقالت: جدو بلا أدب.

ومرة أُخرى حاولتُ أن أعلمها ما كتبه توفيق الحكيم في مقدمة مسرحيته "يا طالع الشجرة"، فقلت لها: قولي معي: يا طالع الشجرة. قالتها وأكملتُ: هاتْ لي معك بقرة. قالت: أنت فعلاً مثل ما قلتَ لي عن اسمك. البقرة ما بتطلع على الشجرة يا جدو... العصفور بيطلع على الشجرة... ليش ما بتفهم؟ أرأيت كيف نذكرك؟ ما زال أولادي الذين أصبح لهم أولاد يذكرون كيف أكلت معنا المجدرة الحمرا في قريتنا جبشيت، وأنت ترتدي قميصك الزيتي وبنطالك الأسود، ووجهك الأسمر وظرفك الذي لا ينفد. وما زالوا يرددون الأغاني التي علّمتهم إياها، ويأخذون بيد أولادهم فيعلمونهم لعبة بالأصابع كنتَ قد علّمتهم إياها وأدهشتهم. ومَن استطاع أن يستحوذ على قلوب الأطفال، لا بد من أن فيه طفلاً مثلهم. "دير بالك على هذا الطفل"... قل لمنى أن تعتني به لأنه سلواها وسلوانا. أعلم أنها لا تحتاج إلى توصية لأنها تحب الأطفال الذين يشبهونك، ولذلك اختارتك، فاخترناها سيدة لجمالك وعروساً للنيل من لبنان. ما زالت أم حسن عندما يتأزم وضعها الصحي، وأعدها بأن آتي بطبيب صديق كي يعاينها، تصرخ مذكرة إياي بمعايناتك لها التي يختلط فيها الحب بالطب، والسياسة بالعلم، والدين بالدنيا، وتقول: يمكن هذا محجوب آخر. دعني من الأطباء أصدقائك الذين صارت علاقتهم بالطب تشبه علاقتك بالفقه.

أقبلك ريثما أراك... يا محجوب، إن حسن.. ابني صديقك، أثار غيرتي وحسدي عندما كتب عنك قبل أكثر من عشرة أعوام وسبقني. ■

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية
والمعهد الفرنسي للشرق الأدنى

تجليات الهوية

الواقع المُعاش للاجئين الفلسطينيين في لبنان

تحرير

محمد علي الخالدي

١٧٢ صفحة ١٥ دولاراً